عندما يلد التراب أبطالاً فما على الأبطال سوى الدفاع عنه.

في إحدى قرى عفرين، بين أحضان قرية عبيدان، ولد هذا الشاب من عائلة فقيرة الحال تتألف من عشرة أولاد. ترعرع في حضن المأساة والألم، حيث التراب تعلمه الارتباط بالقرية. وأشجار الزيتون المقدسة علمته الصفاء والنقاء بصفاء الشمس ونقاء البحار.

منذ نعومة أظافره تعلم ما معنى الكدح، وما معنى العمل. وفي سبيل مساعدة والده في إعالة العائلة وحمل المسؤولية عل عاتقه، ترك الرفيق جمعة دراسته، وانضم إلى قوافل رفاق جيله للعمل.

ربما لم يكن يعرف بعد ما معنى المسؤولية، ولكن مشقات الحياة القاسية أرغمته على أن يكون كبيراً منذ أن كان صغيراً. وهذه هي حال أغلب أطفالنا الكرد.

كان متميزاً في طفولته بالشغب والمشاكسة البريئة التي كانت تزيد من جمالية روحه. وتفرد عن أفراد عائلته بشفافيته. كان يصادق كل من يروق له من رفاق الطفولة، ومن جهة أخرى يسعى لمساعدة العائلة. أي أنه حاول الاحتفاظ ببراءة الطفولة وعيش حلاوتها، رغم المرارة التي فرضتها عليه الحياة منذ نعومة أظافره.

وبما أن العائلة، كما هي حال أغلب عائلاتنا الكردية في القرى، لا تتميز بأي مستوى علمي متقدم، لم يكن أفرادها يبالون بشأن هذا الولد ومستقبله. إنما انصب خوفهم على ما سينم عنه اختلاطه مع مجموعة رفاقه العاطلين عن العمل، فاختلقوا المشاجرات لتخويفه من مصاحبة رفاقه هؤلاء.

في تلك الأثناء بدأ هذا الشاب الذي لا يتجاوز الثانية عشر من العمر يتميز بميول الابتعاد عن العائلة، وذلك بالتفكير بهجرة وطنه وترابه... بالرحيل إلى مكان آخر حتى يستطيع تأمين الحياة الأفضل له وللعائلة، ولكي يتعلم تحمل المسؤولية بعيدا عن كنف العائلة. وكان ما شاء، حيث ذهب إلى لبنان.

هناك بدأ يشق حياته بالاعتماد على ذاته، فما بالك لمثل هذا الشاب أن يعمل بمفرده بعيدا عن قريته، عن أصدقائه، بعيدا عمن يرشده لتمييز طريق الصواب عن طريق الخطأ.

بدا شابنا يتجول بين شوارع لبنان، يعمل هنا وهناك وهو لا يزال طري العود. يطيل من فترة العمل حتى يكون قادرا على حمل المسؤولية بكل معنى الكلمة. وهنا تعرف على مجموعة من المؤيدين المناصرين لحزب PKK، ودخلت فكرة جديدة الى روح هذا الشاب الذي هاجر وطنه وشق طريقه بصعوبة بالغة، فكان ان احتضنته أم مجروحة تنادي أولادها.

في تلك الأثناء بدأت حياة هذا الشاب تدخل مسارا آخر بتعامله مع هؤلاء الشخصيات. فتبلورت صفاته المشاكسة التي كان تعلمها من رفاقه في القرية مع تميزها بنضوج أكبر وأوضح، وساعده على التاقلم مع ذلك بسرعة أكبر انفصاله عن العائلة في سن مبكر.

ومع ازدياد متانة علاقته مع مؤيدي PKK ومن ثم الرفاق، بدأ بالنضال في صفوف الجبهة بكل حماس واندفاع وكأنه ولد من جديد، حيث ترك الحياة القديمة خلفه, والتي كانت تمثل ذكرى مأساوية صعبة بالنسبة له. هذا الشاب المفعم بالحب والحنان والعطف منذ صغره زرع خصاله هذه في نفوس رفاقه أيضاً. وكيفما كان يتقرب من أخواته البنات بدأ يتقرب لرفيقاته الفتيات، حيث كان يكن لهن جل الحب والاحترام، ويتبادل معهن أفكاره باعتباره لم يكن يملك رصيدا علميا كافيا اثناء انطلاقته الاولى بين صفوف الحركة. ولكن، ومن خلال تلقيه دورة تدريبية خاصة في أكاديمية معصوم قورقماز في 15 آب في عام 1991، أصبح ذا شخصية متفهمة للأمور، ذا قوة قادرة على حل أموره من الناحية السياسية والثقافية والعسكرية، وغدا مثالا للتضحية.

هكذا رفض حياته القديمة، ولم يستسلم للقدر الذي يُدَّعى أنه مكتوب له، وكان رفضه ذاك بالتحاقه الرسمي بصفوف الحزب وذهابه إلى ساحة القتال. قبل الالتحاق بساحة الحرب قام بزيارة عائلته ورؤيته قريته مرة أخرى قد تكون هي الاخيرة، وذلك حتى يقبّل ترابها ويصلي لها ركعتين: ركعة لارتباطه بها، والثانية لولعه بها. وراح يشبع ناظريه بمنظر أشجار الزيتون التي بدت أكثر جمالا وروعة في أول الربيع.

عندما وقعت عينا أمه عليه عرفت من لوعته ودفئه ونقاشه أن هذا الشاب لم يعد ذاك الصبي التي كانت تخاف عليه من رفاقه في القرية، رفاقه غير المبالين بالحياة. حتى أقاربه علموا كم تغير هذا الصبي منذ ذهابه إلى لبنان.

لم يكن الشاب الأول في القرية أو من العائلة الذي يلتحق بصفوف الحزب والثورة، إنما لم يكن احد يصدقه في عزمه ذاك، لأن الجميع كانوا قد عرفوه غير مبالٍ بهذه المسائل، وإنما كان يهتم بالطيور وزراعة الأرض وحرثها وما شابه ذلك. ربما كل هذا علمه الحب... الارتباط... وحتى الحرية التي طالما كان يبحث عنها بين زوايا القرية العتيقة الفقيرة، و بين نظرات أخواته البنات وأمه البسيطة الحال.

ودع رفيقنا جمعة العائلة والأقارب، مثلما ودع كثيرا من رفاقه وأصحابه في القرية على أمل اللقاء بهم على أرض حرة ومستقلة، وحمل جعبته المليئة بالذكريات ليدخل بها ساحة الوطن الساخنة، ليحتضنه إقليم بوطان فيذرف الرفيق دمه قطرة قطرة على تراب وطنه وهو ما يزال في ريعان شبابه.

هكذا كان التحاق الرفيق جمعة بقافلة الشهداء بعد أن أبدى الكثير من التضحيات الباسلة وأعظم آيات الشهامة والبطولة، وطوى بذلك كتاب ذكرياته بأنبل وأقدس الآيات، وترك رسالته ممهورة بدمه كي يكمل رفاقه الطريق حتى النصر.

وأغلق عينيه مرتاح البال مطمئن النفس في ربيع 1994.

<< رفاق السلاح >>

صادر في ملف الشهداء" شيلان" العدد الثاني أيار 2006 – الصفحة 53-54